اللغة العربية

القبط وما يجب عليهم

نحو هذه اللغة

لفريد كامل

لا موضع للجدل والملاحاة في ان لغة أهل مصر: مسلمهم وقبطيهم هي اليوم اللغة العربية . غير انهُ كانت لهم قبل الفتح العربي لغتهم المصرية وهي التي اصطلحنا اليوم على تسميتها « اللغة القبطية » وقد رافقتهم ثلاثة آلاف سنة أو أربعة آلاف ، بل بقيت لساناً لهم حتى بعد الفتح بضعة قرون. ولكن اللغة العربية كانت تزحزحها شيئاً فشيئاً عن مواضعها في دواوين الحكم ثم في سائر مرافق الحياة الى ان تركتها محصورة في الكنائس

ومما يحسن ذكره في هذا الشأن ما قاله المرحوم المسيو مسبرو العلاّمة الأثري في خطبة خطبها في نادي رسيس في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وهو : —

«من المؤكد ان سكان مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر في أوائل حكم الترك . . . ولم يمضِ بعد ذلك قرن ونصف قرن حتى قدم الى مصر سائح فرنسي يدعى فالسليب في أيام لويس الرابع عشر فقدم اليهِ آخر قسيس قبطي يجيد التكلم باللغة القبطية وعجوز كانت تنازعه هذا الامتياز»

وليس المراد من قولي ان اللغة العربية هي لغة مصر الوطنية ان يهمل القبط لغة مصر القديمة او يقللوا من نشاطهم في العناية بها مع ما يرونهُ من اهتمام كثير من علماء اوربا بنشر كتبها وتأليف معجماتها ، فحسبها جدارة بالخلود انها كانت المفتاح الذي فكّ به العلاّمة شمبوليون رموز الكتابة الهيروغليفية على حجر رشيد وبالتالي كان لها الفضل الأول في فض اختام الحضارة الفرعونية وإماطة اللثام عن وجه المدنية المصرية التي لا تزال آثارها موضع فخار المصريين وسبب مباهاتهم بالانتساب الى اولئك الأجداد

ولكني أعني بقولي هذا ان اللغة القبطية لم تعد — ولن تعود — لغة الأم والبيت والمدرسة والمكتب والمصنع والمتجر والمزرعة لأن اللغة العربية قامت مقامها في ذلك جميعهُ . وبات لهذه على القبط حق في ان يحذقوها ويباروا مواطنيهم في التضلع منها والتفوق فيها

ولا أجهل ان القبط يتلقون اللغة العربية في المدارس ويحفظون نحوها وصرفها ويقرأون

ويكثرون ويخصبون خصباً، وان قليلاً منهم يجيدها. غير ان القناعة بهذا القدر دون الاستزادة منهُ هي التي أردت أن أنبه الأذهان الى ما فيها من خطأ. وانهُ كثيرين غيري شعروا مني بالمواهب المريرة هذا الخطأ حينما أنشىء مجمع فؤاد الأول للغة العربية ولم يجد المسؤولون «عضواً» قبطيًّا واحداً في هذه اللغة قمناً بأن يضموه الى أعضائه المصريين والأجانب

ويلوح لي ان علة تخلف القبط في هذا الميدان هي انهم اكتفوا من اللغة العربية بما يكفل لهم كسب عيشهم اليومي. ولكنهم حتى في هذا المجال الضيق كان محصولهم دون الكفاية. معتقدين ان الانقطاع لاتقان اللغة العربية او التعمق في درسها للتوص على دررها والوقوف على أسرارها ليس ضروريًّا لاستدرار أخلاف الرزق. وهذا هو موضع الخطأ فالمادة ليست كل شيء في الحياة الجيدة التي يجب ان تحياها الأمم « وليس بالخبز وحده يحيا الانسان » بل هناك الطموح الأسمى. وهناك لذة العلم لذاته. وهناك التخصص للخدمة ونفع المجموع. ومع ذلك فليس أبعد عن الصواب من قول القائلين ان النبوغ في اللغة العربية ليس مورداً للارتزاق. فنحن في عصر قضت فيه الأمة المصرية والأمم العربية شوطاً بعيداً في ميدان الرقي الفكري وسيتضاعف على الزمن عدد المتعلمين وبذلك تتسع آفاق الأمل برواج بضاعة الأدب العربي بين هذه الأمم

***

وقد يعلل بعضهم عدم تمكن القبط من ناصية اللغة العربية بأن أبواب الأزهر الشريف لا تفتح لهم، فمثل هؤلاء يفوتهم ان في كلية الآداب في الجامعة المصرية قسماً للتخصص في اللغة العربية يقبل فيه المصريون بلا فارق. ويفوتهم أكثر من هذا ان علماء اللغة العربية في مصر وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد المهجر ليسوا كلهم من تلاميذ الأزهر الشريف ولا تخرجوا في كلية اللغة العربية او في دار العلوم

فأحمد شوقي والشيخ محمد الخضري وأحمد زناتي وخليل مطران وبشارة الخوري والأب أنستاس الكرملي والمرحوم الدكتور صروف والدكتور فارس نمر باشا وغيرهم من أعلام اللغة في هذا القرن والقرن الماضي لم يطأوا عتبة الازهر ولكنهم بلغوا أرفع مراتب الاجادة في اللغة نثراً ونظماً بما تلقوه من مبادئها في المدارس وما أضافوه اليها من نتاج تحصيلهم الشخصي

ومن الغريب انهُ ظهر من القبط في القرن الثالث عشر الميلادي غير واحد من جهابذة اللغة العربية كأبناء العسال. ثم نضب معين هذا النبوغ فجأة ولم نسمع بعدهم بأن غيرهم بلغ مداهم اذا استثنينا ميخائيل عبد السيد وتادرس وهبي في مغيب القرن الماضي ومطلع القرن الحالي وعدداً يعد على أصابع اليد الواحدة من الذين أهلتهم ملوماتهم لتدريس اللغة العربية في المدارس الحرة

وبات جهد ما وصلنا اليه ان الذين خلا نطقهم من اللحن وتنزهت كتابتهم عن السقم والركاكة ليسوا الا حفنة صغيرة . أما معظم الذين يقرأون ويكتبون منا ، فلتتهم أقرب الى العجمة منها الى العربية ، حتى ان الدكتور طه حسين بك لم يسعهُ الا ان يشير الى ما لاحظهُ على رجال الدين القبط من القصور في هذا الباب في فصل يجب ان يقرأه القبط في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر »

وكم حزَّ في نفسي ما قرأتهُ في عدد من أعداد مجلة المصور الغراء عن عضو قبطي محترم في أحد مجلسي البرلمان المصري وهو قولها « حبذا لو كانت لغة الخطيب لغة عربية مصونة بنحوها وصرفها ونصبها ورفعها » مع ان هذا العضو المحترم مثقف ثقافة عالية

***

ومن تحصيل الحاصل ان أصف جمال اللغة العربية وعمقها وسموها وغناها بالمعاني الرائعة والخيال الراقي وما فيها من قول سري ممتع ومن ضروب الكلام البليغ والقصيد الرقيص . علاوة على أن العرب عالجوا بكلامهم شؤون الحياة واختباراتها ونوازع النفس الانسانية وخطراتها وارتقوا في كل ذلك الى مناط الافلاك وصفاً وتحليلاً واستنباطاً

وحسبي أن أحيل القارىء الى أعلام كتبها وعيون مصنفاتها كالحماسة والكامل والامالي والبيان والتبيين والعقد الفريد والأغاني ونهج البلاغة وأسرار البلاغة ودواوين البحتري وأبي تمام والمتنبي والأخطل وشوقي وحافظ وأصحاب المعلقات والمجمهرات وعشرات الشعراء في الجاهلية والاسلام وفيها من أفانين النثر والنظم ما يقوِّم اللسان ويكسب حسن البيان ويولي المرء الاجادة في التعبير والتبريز في التصنيف والتحبير ويبوئه مكان الصدر من أئمة الكلام وفوارس الكتَّاب وحملة الأقلام . ينطق بالحكمة ويكشف عن علوِّ الهمة بما يروي من روائع الأدب العربي وبما يجعله حجة في أصول اللغة وثقة يرجع اليه في قواعدها ويعول عليه في تقييد شواردها

وبلوغ هذه المرتبة في معرفة اللغة العربية والسباحة في محيطها الخضم لا يتيسران للطالب في سني الدراسة بل انهما يتوقفان بالمثابرة على المطالعة والبحث والاستظهار . ومن طلب العلا سهر الليالي . ومن خطب فتاة العربية أمهرها المهر الغالي . وما نبغ علماء العربية في جميع العصور الا بالكد وانقضاء القوى في الاقتباس والاقتناص ورواية أجود الشعر وأرق النثر

فالذي أوده أن يعنى القبط بهذه اللغة أضعاف ما أراه من هذه العناية وان يبرِّز منهم في علومها وآدابها وفنونها وتاريخها عشرات وعشرات حتى لا تظن بهم الظنون ولا توجه اليهم غمزات العيون ولا يقال انهم في هذا الميدان عاجزون او متخلفون

واذا وضع الشبان منهم نصب عيونهم الاستبحار في اللغة العربية وبلغوا الغاية من ذلك فانهم

بعملهم هذا لا يخدمون أنفسهم وحدها بل يخدمون الوحدة الوطنية ويعززون الرابطة القومية

ان من القبط كثيرين يجيدون الكلام والكتابة والتأليف باللغتين الانجليزية والفرنسية وبعضهم يتقن اللغة الايطالية او الألمانية ، وانا نطالب للمزيد من هؤلاء « فكل لسان بالحقيقة إنسان » . ولكن علام يدل هذا يا ترى . انهُ يدل على ان في مقدور القبط ان يجيدوا اللغة العربية بالأولى وهي اللغة التي ترافق المرء من المهد الى اللحد

وللشبان قدوة حسنة وأسوة طيبة بصاحب السعادة واصف غالي باشا فانهُ لم يكتف بما كشف من كنوز اللغة العربية بل أضاف الى ذلك انهُ نقل بعض هذه الكنوز الى اللغة الفرنسية بمؤلف شهير نال من أجله أكرام المصريين أجمعين في حفلة أقيمت له في سنة ١٩٠٦ . وفي هذه الحفلة قال أحمد شوقي :

انما « واصفٌ » بناه من الأخـــلاق في دولة المشارق عالِ
واهب المال والشباب لما ينـــفع لا للهوى ولا للضلال
ومذيق العقول في الغرب مما عصر العرب في السنين الخوالي
في كتاب حوى المحاسن في الـــشعر وأوعى جواثر الأمثال
من نسيب تحاذر الغيد منه شرك الحسن او شباك الدلال
ونظام كأنهُ فلك اللبـــل اذا لاح وهو بالزُهر حانِ
وبيان كما تجلى على الر سل تجلى على رعاة الضالِ
ما علمنا اغيرهم من لسان زال أهلوه وهو في إقبالِ
بليت هاشم وبادت نزار واللسان المبين ليس ببالِ
كلما عمَّ مجده بزوال قام نجلٌ لهُ دون الزوالِ

الى أن قال : —

يا شباب الديار مصر اليكم ولواء الدين للأشبالِ
كلما روعت بشبهة يأس جلتكم معاقل الآمال
هيئوها لما يليق بمجد وكريم الآثار والاطلالِ
هيئوها لما أراد (عليٌّ) وتمنى على الظبي والعوالي
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كثيرة الاشغالِ
والى الله من مشى بصليب في يديه ، ومن مشى بهلالِ